مقدمة المترجم

عَرَف تاريخُ دراسة القرآن الكريم في الغرب تطورات جذرية من حقبة تاريخية إلى أخرى. ولم يحصل هذا التطور على مستوى فهم مضامينه وبحث قضاياه فحسب، بل على مستوى مناهجه واتجاهاته أيضًا. ولم تقع هذه التطورات -كما قد يعتقد البعض- بمعزل عن التطوراتِ الحاصلةِ في المجالات العلمية الأخرى، مثل الدراسات الكتابية أو العلوم الدقيقة أو الاجتماعية أو الإنسانيات، بل بلغ لظاها بشكل من الأشكال جوهرَ الدرس القرآني، وأثرت في تفسيره ومقاصده. غير أن حركة تطبيق مناهج هذه العلوم على نص القرآن دائمًا ما تتثاقل، وتتخلفُ عن ركب ووتيرة تطوراتها السريعة والمتنامية.

لا يُقصد بالدراسات القرآنية، بوصفها مجالًا فرعيًّا ضمن حقل الدراسات الإسلامية، «علوم القرآن» المتداولة في التراث الإسلامي، بل **جميع** أنواع الدراسات والحقول التي تُعنى بالجوانب المتنوعة للقرآن الكريم، مثل حقل علوم القرآن نفسه، والتفسير، والترجمة، والاتجاهات، والمناهج، وغير ذلك. ورغم أن مصطلح «الدراسة» قد يتداخل أو يترادف أحيانًا مع مصطلح «العلم» بغض النظر عن الدلالة المعاصرة لهذا الأخير، إلا أن الدراسةَ تدل في الأصل على فعل التعلم المتعلق بموضوع معين من خلال القراءة أو الملاحظة أو التطبيق. وبناء على هذا المعنى، يمكن أن يشملَ مفهومُ الدراسة جميع مجالات وحقول المعرفة المختلفة. ومن ثم، يكمن الفرق بين «علوم القرآن»[1] و«الدراسات القرآنية» في

(1) يأتي مصطلح «علوم القرآن» في التراث الإسلامي للدلالة على خمسة معان مختلفة؛ أولاها: يدل على كل ما له صلة بالقرآن، وثانيها: المحاور والمقاصد التي اشتمل عليها هذا الكتاب، وثالثها: الموضوعات الجزئية المنبثة في ثنايا القرآن بجملته، ورابعها: المعنى اللقبي الخاص الدارج في دراسات المتأخرين، وخامسها: بعض المصنفات في التفسير التي تولي عناية بالغة بمباحثه. ويمكن أن يدل مصطلح علوم القرآن كذلك على **مناهج** دراسة القرآن الكريم.

ثلاثة أمور: **أولها: شمولية** مجال الدراسات القرآنية، و**جدة** بعض مباحثه، مثل دراسة المخطوطات، ودراسة التفاسير، والدراسات النصية واللغوية، والدراسات الموضوعية، والدراسات التاريخية، والنسائية، والدراسات التعبدية والجمالية وغيرها. **وثانيها:** انتهاج الدراسات القرآنية، ولا سيما الغربية منها أو الدراسات العربية المنبهرة بها، مناهجَ لا تختلف عن مناهج الدراساتِ الكتابية؛ ولذلك فإنها تعني -على سبيل المثال- بدراسة المخطوطات، والنقوش، والدراسات التاريخية، ودراسة النصوص الفرعية (النصوص اليهودية والمسيحية المبكرة)، ونقد النص، ونقد الشكل، ونقد المصدر، ونقد التدوين، والمناهج اللغوية والاجتماعية، وغير ذلك. **وثالثها:** انفتاح حقل دراسة القرآن، بحكم فعل الدراسة والتطور العلمي والتكنولوجي، على علوم وحقول معرفية مختلفة. ومن ثَمَّ انتقل الدرسُ القرآني من حيز الخصوص إلى حيز العموم، وانفتح بابه على مصراعيه ليتلقفه كل مهتم بدراسته، أو كل فضولي يرغب في افتراش لسانه[1].

ساعد على هذا الانفتاح استقلال مجال دراسة القرآن في الغرب، بعد أن «ظل

---

(1) تختلف الدراسات القرآنية الإسلامية عن الدراسات القرآنية الغربية في ثلاثة أمور: **أولاها: المنظور والخلفية:** تنجز الدراسات القرآنية الغربية في الغالب داخل المؤسسات الأكاديمية الغربية من قبل علماء من خلفيات دينية مختلفة، بما في ذلك المسلمون والمسيحيون واليهود وأتباع الديانات الأخرى أو اللادينيون. وغالبًا ما يكون هذا المنهج علمانيًا أو محايدًا من الناحية الدينية، ويرتكز أساسًا على البحث العلمي والتحليل النقدي. أما الدراسات القرآنية الإسلامية، فتكون عادة داخل البلدان ذات الأغلبية المسلمة أو ينجزها علماء يتعاطفون مع دين الإسلام. وغالبًا ما يتأثر هذا المنهج بالعقيدة الإسلامية والفقه والحديث، ويقوم على فهم القرآن الكريم في سياق العقيدة والممارسة الإسلامية. **ثانيها: المنهج:** يوظف الباحثون الغربيون مجموعة متنوعة من المناهج متعددة التخصصات، مثل التحليل التاريخي النقدي، والدراسات اللغوية، والنقد الأدبي، والمناهج المقارنة. وينصب التركيز على دراسة القرآن باعتباره نصًّا تاريخيًّا وأدبيًّا ضمن سياقه الثقافي والديني الواسع. في حين يعتمد الباحثون المسلمون على المناهج الإسلامية التقليدية، مثل التفسير، والحديث، والفقه، مع التركيز على فهم القرآن بوصفه كلام الله الحرفي والخالد، واستكشاف معانيه وتفسيراته وتطبيقاته في الشريعة الإسلامية. **ثالثها: الجمهور والغاية:** يضم البحث الغربي جمهورًا متنوعًا من الأكاديميين والطلاب وعامة الناس المهتمين بالبحث العلمي وفهم القرآن من وجهات نظر متنوعة. والغرض من ذلك هو الإسهام في المعرفة الأكاديمية والحوار عبر الحدود الدينية والثقافية. أما جمهور البحث الإسلامي فيتكون أساسًا من المسلمين الذين يسعون إلى تعميق فهم القرآن الكريم لأغراض روحية وعقائدية وتشريعية. ويكون الغرض هو توضيح معاني آي القرآن، والكشف عن تعاليمه الأخلاقية، وترشيد حياة الفرد والمجتمع.

حقلًا مغمورا نسبيًا في الدراسات العربية والإسلامية خلال العقود الوسطى من القرن العشرين»[1]. وبذلك أمسى اليوم تخصصًا عالميًّا واسعًا يضم تحت مظلته، كما ذكرنا آنفًا، تخصصات واتجاهات فرعية جديدة. وقد أحصى الإيراني مرتضى كريمي نيا **(Morteza Karimi-Nia)** في كتابه الموسوم بـ«**ببليوغرافيا الدراسات القرآنية في اللغات الأوروبية**»[2] في الفترة الممتدة ما بين سنة 1500م و2012م ما يناهز 8812 إدخالًا، تشمل الكتبَ والمقالات المنشورة باللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية والهولندية واللاتينية[3]. وتعكس عناوينُ ومناهج الدراسات المبثوثة في هذه الببليوغرافيا وغيرها طبيعةَ الجهود والاتجاهات العلمية المختلفة للدراسات القرآنية على مر العصور في الغرب، وتعكس كذلك **أسماءُ** الباحثين وهوياتهم التنوعَ العالمي الذي أضحى ميزة العالم الأكاديمي اليوم. إذ لم يعد مقتصرًا على المتخصصين في القرآن، بل ارتمى في أحضانه، بعد أن صار مرتعًا، كل باحث قاده فضوله إليه ولو من

(1) Devin Stewart, «Reflections on the State of the Art, «p. 6

(2) Morteza Karimi-Nia, *Bibliography of Qur'anic Studies in European Languages* (Qum (Iran): The Centre for Translation of the Holy Qur'an, 2012).

أضحت الدراسات الببليوغرافية فرعًا من تخصص الدراسات القرآنية المعاصرة، فقد بدأ ظهورها في بداية أواخر عشرينيات القرن الماضي. إذ نشر سيج وولفورث **(Sage Woolworth)** أحد أقدم المقالات سنة 1927م، بعنوان: «ببليوغرافيا نصوص القرآن وترجماته»، ورتبها بناءً على معياري اللغة والزمن، وبذلك مهد الطريق لأعمال مماثلة. ومن أبرز هذه الأعمال كتاب إكمال الدين إحسان أوغلو الموسوم بـ«**البيليوغرافيا العالمية لترجمات معاني القرآن الكريم**» الصادر سنة 1980م، وكتاب عادل عثماني بعنوان: «**دراسات إسلامية: مصادر حول القرآن بالإنجليزية: دراسة ببليوغرافية**» الصادر سنة 1986م، وكتاب فوزي ميخائيل تاردوس الموسوم بـ«**القرآن الكريم في مكتبة الكونغرس: دراسة ببليوغرافية**» الصادر سنة 1993م، وكتاب أبي الحسن صادق ونصر الإسلام الموسوم بـ«**إسهامات في المعرفة الإسلامية: ملخصات الرسائل والأطروحات في الموضوعات الإسلامية ما بين 1924 و1998**» الصادر سنة 1999م، والأعمال الأربعة التي نشرها عبد الرحيم كيدواي، وهي: «الأعمال المرجعية حول القرآن باللغة الإنجليزية: دراسة بيليوغرافية»؛ و«ببليوغرافيا ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية (2007)؛ و«ترجمة ما لا يمكن ترجمته: دليل نقدي لستين ترجمة للقرآن» (2011)؛ و«كلام الله، وتفسير الإنسان: دراسة نقدية لترجمات القرآن الإنجليزية في القرن الحادي والعشرين» (2018). ومن الإضافات الجديدة إلى تخصص الببليوغرافية في القرآن الكريم دراستان نشرهما ساجد شافي وسم الأولى بـ: «**الدراسات القرآنية في القرن الحادي والعشرين باللغة الإنجليزية: دراسة ببليوغرافية**» الصادرة سنة 2018م، ووسم الثانية بـ«**الأبحاث الأكاديمية حول القرآن: دراسة ببليوغرافية نقدية**» الصادرة سنة 2019م وغيرها من الأعمال البيبليوغرافية الأخرى.

(3) Morteza, *Bibliography of Qur'anic Studies in European Languages*, p. XI

خارج التخصص. وبقدر ما يدل تنوع المناهج والاتجاهات والهويات على تشعب مجال الدرس القرآني في الغرب، يدل كذلك على أنه أضحى حقل ألغام يتطلب الحذر الشديد، ومستنقعًا يستلزم مصفاة تزيل عنه الثفالة والمواد الغريبة؛ إذ لم يعد البحث في هذا المجال مقتصرًا على ثقافة معينة، أو لغة أو عرق أو جنس أو دين معين. وتدل هذه الحقيقة على أن القرآن قد دخل إلى قائمة قانون العالم الأدبي، وخضع إلى التحليل عبر مجموعة واسعة من المناهج والمقاربات والمسلمات.

أما مفهومُ الدراسات القرآنية «**الغربية**» المعهود والمتداول الدال على الدراسات **العلمية** التي أنجزها على الأرجح **غيرُ المسلمين** الذين يعيشون في أوروبا أو الأمريكتين- فلم يعد اليوم لقمة سائغة، بل أضحى إشكالًا متزايدًا ومخاضًا عسيرًا في سياق القرن الواحد والعشرين. ولذلك يقول أندرو ريبين (Andrew Rippin): «لم يكن **مفهوم الدراسات الغربية** للقرآن يطرح نقاشًا جادًّا في بداية القرن العشرين؛ إذ كان من الواضح تمامًا أن «العبارة» تشير إلى الأعمال «**العلمية**» المتعلقة بالقرآن التي أنجزها الأكاديميون الأوربيون غير المسلمين. غير أن استمراريةَ مثل هذا الفهم أمسى في القرن الحادي والعشرين يمثل إشكالًا كبيرًا؛ وذلك من وجهين: لأنه لا يدرج الأعمال التي أنجزها المسلمون ضمن هذه الفئة -ومن الواضح أن هذا المفهوم مغلوط عند تصفح رف كتب أي باحث اليوم- ولأن مصطلح «العلمية» يتغير عندما يطبق على عالَم فكري يشهد تنوعًا متزايدًا ثقافيًّا ومنهجيًّا»[1].

يثير هذا التقييمُ لمصطلح «الغربي» إشكالين؛ يتجلى الإشكال الأول في قصر مفهوم «الدراسات **الغربية** للقرآن» على الباحث الأوربي **غير المسلم**. ويرجع ذلك، كما يرى فريد دونر (Fred Donner)، في المقال الأخير أدناه، إلى ثلاثة أسباب: **أولاها:** أن كثيرًا من الباحثين المسلمين يشتغلون اليوم في الغرب، ويشاركون في الخطاب الفكري الذي أنجزه باحثو الغرب المتعلق بالقرآن وغيره. و**ثانيها:** أن كثيرا من الباحثين الذين ولدوا ونشأوا في الغرب أمسوا مسلمين اليوم. و**ثالثها:** أن بعض

(1) Andrew Rippin, «Western scholarship and the Quran,» in *The Cambridge Companion to the Qur'an*, p. 235.

الباحثين المسلمين في العالم الإسلامي لم يُحِيطوا عِلمًا بالمقاربات أو الحجج التي أثارها في البدء باحثون «غربيون، بل قد تبنوها أحيانًا»[1].

أما الإشكال الثاني فيتعلق بمدى اختلاف مفهوم **العلمية** في الدراسات الاكاديمية أو الدراسات العلمانية عن الدراسات الدينية بناء على أن الأولى دراسات غير متحيزة أو محايدة. فقد عَرَّف ماركو شولر (Marco Sholer) الدراسات الأكاديمية للقرآن، في المقال الثاني أدناه، بـ«الأبحاث الموضوعية النقدية للمعرفة (غير الجدالية)، التي لا تتقيد بالأولويات المؤسساتية الدينية»[2]، غير أن هذا المفهوم أضحى كذلك غير مقبول اليوم من وجهين:

أولهما: أن كلاًّ من الباحثين العلمانيين والمتدينين يمتلكان جملة من الفرضيات والالتزامات المبدئية، وهذا يحول دون سهولة الفصل بين الفئتين. فلا تعدو أن تكون الدراسات الأكاديمية «المحايدة» سوى جملة من المسلمات والفرضيات الدقيقة التي تؤمن بها الدراسات الأكاديمية أو العلمانية، على غرار الحقائق الإيمانية التي تنطلق منها الدراسات الدينية أو الإسلامية؛ ومن ثَمَّ يَصعُب الدفاعُ عن التمييز القديم بين الدراسات «الإسلامية» و«الغربية». يقول أندرو ريبين: «لقد أضحى معلومًا داخل التخصص أن الفرضية الشائعة القائلة بأننا ندرس الدين في الجامعة من وجهة نظر علمانية لم تعد تفي بالغرض: إذ العلمانية -مثلها مثل الدين- موقف يرتبط بقيم ترى أن الحقيقة العالمية ليست أصح من الحقيقة الدينية»[3].

ثانيهما: وجود دراسات تتنكر في زي «العلمية» أو «الأكاديمية» إلا أنها في الحقيقة دراسات جدالية أو هجينة. فمعيار الأكاديمية -كما يقول أندرو ريبين- نفيس جدًّا؛ لأن كثيرًا من الأعمال التي تصف نفسها بـ**الأكاديمية**، لا تعدو أن تكون أعمالًا **جدالية** متنكرة في لبوس علمي، سواء على مواقع الإنترنت، أو في بعض أنشطة النشر التقليدية[4]. ويرجع السبب في استمرارية هذا التراث الجدالي القديم إلى كونه حجر الأساس الذي

(1) انظر المقال الرابع أدناه.

(2) انظر مطلع المقال الثاني أدناه.

(3) Andrew Rippin, «Western scholarship and the Quran,» p. 236.

(4) Andrew Rippin, «Western scholarship and the Quran,» p. 236.

شَكَّل الخلفية التاريخية للفكر الأوروبي. ومن ثم استمر تأثيره، وعلى نحو غير مقصود أحيانًا، على الدراسات اللاحقة مثل دراسات كل من شارلز توري (Charles Torrey) وريتشارد بيل (Richard Bell) وغيرهما. وقد أدى ذلك أيضًا إلى ظهور أعمال تمثل نوعًا هجينًا من المقاربات الجدلية والعلمية التي لا تهدف إلى فهم نص القرآن، وإنما تتغيى «تشويهه» أو السخرية منه سعيًا وراء تحقيق أجندة واسعة معادية للإسلام، مثل دراسات كثير من باحثي مدرسة «الإنارة»، ولا سيما زعيمهم كريستوف لوكسمبرغ، وغونتر لولينغ وغيرهما[1]. وقد أدى هذا النوع من الأعمال الجدالية والهجينة المتنكرة في لبوس العلمية إلى صعوبة فصل العلماء المسلمين بين التيارين الجدالي والعلمي، والشك في جميع الدوافع الحقيقية المتغياة من وراء الأعمال الغربية المتعلقة بالقرآن الكريم والإسلام. ولم يرفض علماء المسلمين هذه الدراسات بفعل المنهجين الجدالي أو الهجين فقط، بل أيضًا بسبب انتهاء أغلب الباحثين الغربيين إلى خلاصات حول القرآن تختلفُ عن المذاهبِ الأساسيةِ التي طوَّرَها التراثُ الإسلامي نفسُه. وقد حوَّل ذلك جميع الدراسات الغربية مضغة في الأفواه، وقاد أيضا إلى اتهام جميع المؤلفين الغربيين، مثل المجادلين، بأنهم لا تُحَرِّكُهُم في المعدن إلا أياد خفية ترغب في تقويض الإسلام أو السخرية من كتابه الكريم. ولكن أعتقد أنه من غير الموضوعي اختزال جميع هذه الأعمال والنتائج المختلفة عن التراث الإسلامي **في** وجود نية معادية أو جدالية، بل يرجع ذلك أحيانا إلى **مقاربة المؤلف ومنهجه الخاص في دراسة النص، وإلى فرضياته العامة حول التاريخ والواقع**. ومن ثم يتعين على الباحث المسلم أن يتسلح بالمفاهيم والأدوات المنهجية التي تنهض عليها الدراسات الغربية حول القرآن حتى يتمكن من التمييز بين العلمي والجدالي العدائي الذي لطخ صورة القرآن، ولوَّثَ سمعةَ الإسلام، ويقتدر بذلك على تقديم نقد علمي موضوعي حصيف.

وإذا كانت درجةُ الجدال والعلمية تتفاوت من مرحلة إلى أخرى، فلا يمكن الفصلُ بوضوح بين الدراسات «العلمية» و«الجدالية» إلا بتتبع تاريخ واتجاهات دراسة القرآن في الغرب. إذ تملك دراسة القرآن في الغرب تاريخًا قديمًا يعود إلى القرن الثاني عشر

(1) انظر مقال فريد دونر أدناه.

الميلادي. ومن ثم قد يسعف هذا التاريخ في تمييز الغث من السمين، وفهم نتائج الوضع الحالي وتفسيره، واستشراف مستقبل الدراسات المقبلة كذلك. ولا تنحصر **فوائد** هذا التحقيب في مساعدة القارئ على تسهيل المسار التاريخي للدرس القرآني في الغرب وإيضاحه فقط، بل يساعد على إلقاء الضوء على أسباب استمرارية بعض المواقف التاريخية أو تطور ظواهر واختفاء أخرى أيضا. علاوة على ذلك، قد يساعد هذا التحقيب على نسج روابط سببية بين الفترات، والمقارنة بينها. ومع ذلك، لا بد أن نأخذ في الحسبان أن التحقيب في هذا السياق -بفعل معاييره النسبية- تحقيب وظيفي وغير قطائعي، نظرًا لتداخل الحقب، وامتداد مواضيع كل حقبة إلى الحقبة الموالية أو الأخيرة كذلك.

وبناءً على هذا التداخل المرحلي، اختلفت أغلب الدراسات التي تعنى بالتأريخ لمراحل دراسة القرآن. **فقد** ارتأى، في المقالين الأولين، كل من هارتموت بوبزين وماركو شولر تقسيم مراحل الدراسات القرآنية الغربية إلى قسمين: دراسات جدالية أنجزت قبل القرن الثامن عشر، ودراسات أكاديمية علمية بدأت منذ القرن التاسع عشر، واستمرت إلى العصر الراهن. وهو في نظري تقسيم نسبي؛ لأن كثيرًا من دراسات الفترة الثانية، كما ذكرنا أعلاه، جدالية عدائية وتآمرية. وقد قسمها ديفين ستوورت **(Devin Stewart)**، في المقال الثالث أدناه، إلى خمس مراحل: تبدأ المرحلة الأولى من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر، وتبدأ الثانية من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، في حين تبدأ الثالثة من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الثانية، أما المرحلة الرابعة فتبدأ من منتصف القرن العشرين، وتبدأ المرحلة الخامسة من أواخر القرن العشرين وتمتد إلى حدود اليوم[1]. أما فريد دونر فقد قسَّمَ مراحل تاريخ دراسة القرآن إلى ثلاث مراحل: تشمل المرحلة الأولى الدراسات الجدلية والتراث العقلاني في عصر الأنوار، وتشمل المرحلة الثانية المنهج التاريخي النقدي (سياق القرآن وتاريخه) وكذلك التيار التنقيحي منذ 1970م إلى اليوم، في حين يهيمن على المرحلة الثالثة المعاصرة الاتجاهُ الأدبي[2].

---

(1) Devin Stewart, «Reflections on the State of the Art,» p. 6

(2) انظر المقال الأخير.

ويمكن تقسيمُ تاريخ الدراسات القرآنية الغربية في تقديري، رغم تداخل مراحله، إلى ثلاث مراحل تقريبية: مرحلة قديمة وحديثة ومعاصرة.

تبدأ المرحلة القديمة، بوصفها حقبة تكوينية، من منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وتنتهي إلى حدود أواخر القرن الثامن عشر. غلب على هذه الفترة الأطول في تاريخ دراسة القرآن في الغرب الجدلُ والترجمة؛ إذ تكونت دراساتها أساسًا من ترجمات مصحوبة بتفاسير وتعاليق تمتزج فيها الملاحظات الفيلولوجية والتاريخية الحافلة بالمحتوى الجدالي. توثق هذه الدراسات العلاقة المتناقضة بين الغرب والشرق؛ أي بين المتخصصين الأوربيين في اللغات السامية والقرآن. وإذا كان القرآن قبل القرن الثاني عشر لم يعرف في الغرب إلا من خلال عيون المسيحيين الشرقيين، فإن الترجمة اللاتينية لروبرت الكيتوني الصادرة سنة 1143م -التي أنجزت بدافع الجدل- أتاحت للعلماء الغربيين الوصول المباشر إلى النص. فقد تقصدت ترجمتُه -اعتمادًا على لغة لاتينية كتابية أنيقة، وعلى بعض التفاسير القديمة- دحضَ القرآن. وعلى الرغم من أن كل متجادل مسيحي في هذه المرحلة تبنى مقاربة خاصة في مناقشة القضايا المثارة بشأن القرآن، والنبي ﷺ، فإنه عند قراءة مختلف هذه النصوص التي تناقش نفس الموضوعات أو الشبهات، والتي يرد أغلبها في مقدمات ترجمات القرآن، لا نلحظ إلا اجترارًا للأسلوب نفسه والحجج ذاتها. وأغلب هذه الشبه التي زكمت رائحتها الأنوف كما أشار هارتموت بوبزين **(Hartmut Bobzin)** أدناه مقترضة من الإرث المسيحي الشرقي، لا سيما من رسالة عبد المسيح ابن إسحاق الكندي، وكتاب الهراطقة ليوحنا الدمشقي (المتوفى قبل 754م).

تنحصر أغلبُ الأسئلة الهجائية المثارة في هذه الفترة في **أصول** الإسلام، والقرآن، و**النبوة**، و**المعجزة**. وهذا يُثير أسئلة بشأن هذا التكرار، وأسباب مناقشة بعض المواضيع بترداد أكثر من غيرها؟ ولماذا خلقت هذه الرتابة الحجاجية والنقاشات السطحية إشكالات لدى علماء القرن الحادي والعشرين؟ وعلى الرغم من ملاحظة بعض التطورات والسمات الإيجابية في بعض المواقف في العصور الوسطى، وفي ترجماتِ القرآن الكريم، والاهتمام بالعلوم العربية والإسلامية، ومحاولة فهم الإسلام

انطلاقًا من مصدره الأصلي، فإن النتائج لم يلحقها أي تغيير. ومن المفارقات أن المسيحيين على الرغم من اعتبارهم أن القرآن وحي زائف والإسلام دين معادٍ متآمر ضد الدين المسيحي، فإنهم في الآن ذاته اعتمدوه مصدرًا -أي المعطيات المسيحية الواردة في القرآن- للدفاع عن صحة الدعاوى والمعتقدات المسيحية المرتبطة بالمسيح والكتاب المقدس ضد خصومهم. فقد كان هذا التوظيف المخاتل والازدواجية المتناقضة كما يقول توماس بورمان: «استراتيجية **بسيطة**، وإن بدت متناقضة مع ذاتها»[1]. ومن المفارقات المعقدة الأخرى كذلك التي كشف عنها بورمان في هذه الحقبة اعتبارهم القرآن اللاتيني وحيًا مكذوبًا ونصًّا خصيمًا، ولكن في الوقت نفسه تُرجم ونُسخ وعُلق عليه بعناية فائقة. فقد كان نصًّا ممنوعًا مرغوبًا؛ مكروهًا مبغوضًا ومبهرًا وجذابًا في الآن ذاته[2].

وتبدأ المرحلةُ الحديثة، في العرف الأكاديمي السائد، من مطلع القرن التاسع عشر، وتحديدًا مع نشر كتاب الألماني اليهودي أبراهام غايغر (Abraham Geiger) الموسوم بـ«ماذا استعار محمد من اليهودية؟» ولا تنتهي إلا في أواخر القرن العشرين. غلب على دراسات هذه المرحلة المنهج النقدي التاريخي. **ورغم أن دراسات هذه المرحلة توصم بالأكاديمية**؛ أي أنها أبحاث موضوعية نقدية غير جدالية، وغير مقيّدة بأي سلطة دينية[3]. إلا أن كثيرًا من هذه الدراسات «الحيادية»، لم تتحرر تماما من طوق المناهج الجدالية والاختزالية، أو المناهج الهجينة التي تتدثر ظاهريا بدثار العلمية، وترنو باطنيًّا إلى تحقيق أهداف أيديولوجية. ولعل من أبرز الأمثلة على هذه المناهج، كتاب شارلز توري (Charles Torrey) الموسوم بـ«**الأصل اليهودي للإسلام**»، وكتاب ريتشارد بيل (Richard Bell) الموسوم بـ«**أصل الإسلام في محيطه المسيحي**». ولذلك يقول فريد دونر في معرض حديثه عن هذا الاتجاه الجدلي: «آثَرَ باحثون غربيون آخرون، لا سيما

(1) Thomas E. Burman, «Polemic, philology, and ambivalence: Reading the Quran in Latin Christendom,» *Journal of Islamic Studies 15* (2004) p. 182.

(2) Thomas E. Burman, *Reading the Qur'an in Latin Christendom, 1140–1560* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2007).

(3) Marco Schöller, «Post-Enlightenment Academic Study of the Qurān,» in *EQ 4*)2004): p. 187

في أوائل القرن العشرين، التفكير في دور المواد «اليهودية» و«المسيحية» المذكورة في القرآن بطريقة اختزالية إلى حد ما، زاعمين أحيانًا أن القرآن مجرد نسخة مشوهة من النصوص السابقة. ويمكن تصنيفُ مثل هذه الأعمال، بغض النظر عن النباهة العلمية التي انتهجتها، ضمن تراث الجدل الديني؛ لأن هدفهم، سواء المعلن أو الخفي، هو البرهنة على أن القرآن والإسلام مستعار من مواد سابقة، ومن ثَمَّ يفتقد للأصالة والشرعية»[1].

أما المرحلة المعاصرة فتبتدئ في رأيي من أواخر القرن العشرين وتمتد إلى حدود اليوم. شهدت هذه المرحلة انعطافًا في التصور والمنهج. إذ انتقل التحليل المعاصر للقرآن من نقد المصدر إلى مقاربات تحليلية نصية. وفي هذه المرحلة ظهر مفهوم «الدراسات القرآنية» بوصفه أحد أبرز التطورات الحاصلة في مجال الدراسات الإسلامية. ويَعُودُ تطورُ وتوسع هذا التخصص الفرعي اللافت للنظر في اعتقادي إلى ثلاثة أسباب: **أولاها:** توفر مصادر جديدة، **وثانيها:** توظيف مناهج جديدة، **وثالثها:** حصول تفكير متجدد في الاتجاهات التأويلية. وقد تجلى هذا التطور في تزايد عدد المنشورات والرسائل العلمية والندوات ومشاريع الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم في الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية والبلدان ذات الأغلبية المسلمة. فقد شهد العالم الأكاديمي في القرن الحادي والعشرين ثورة من الكتابات في أعرق دور النشر، وكذلك موجة من الاتجاهات المختلفة حول دراسة الإسلام، ولا سيما مصدره الرئيس القرآن الكريم. غير أن تقييماتِ الباحثين للدراسات المنجزة في هذا المجال تأرجحت بين وصفها بالنعمة من جهة والنقمة والفوضى من جهة أخرى، وفي هذا الصدد يقول ديفين ستوورت: «يعد الاهتمام المتزايد بالقرآن على مدى العقود العديدة الماضية نعمةً من جهة؛ لأنه أدى إلى ارتفاع حاد في معدل إنتاج الدراسات القرآنية، وكذلك في عدد المقاربات المختلفة. فقد دبَّتِ الحياة اليوم في مجالات بحثية توقفت في النصف الأخير من القرن العشرين، بما في ذلك دراسة تقاليد مخطوطات القرآن والعلاقة بين القرآن والنصوص اليهودية والمسيحية. غير أن هذا الاهتمام المتزايد يدل من جهة أخرى، كما في مجال الدراسات الكتابية، على نقمة تتجلى في زيادة عدد المؤلفين الذين يكتبون حول الموضوع، وارتفاع عدد

(1) انظر مقال فريد دونر أدناه.

الدراسات، وعلى المرء أن يخوض في مستنقع هذه المواد المنشورة، التي لا تنسخ سوى الأطروحات القديمة، من أجل العثور على تقدم ملموس»[1].

ولا يرجع ضعف هذه المواد المنشورة في اعتقاد ستوورت إلى عامل اللغة، والمنهج، وتضارب النتائج واختلاف الفُهوم، وصعوبة الإمساك بتلابيب المجال فقط[2]، بل يعود أيضًا إلى كفاءة الباحث؛ ولذلك يقول: «فلا حرج في أن ينشر أستاذ يتميز بكتابة إبداعية، مثل رضا أصلان (Reza Aslan) -أو حتى الموظف الليلي الذي يشتغل في فندق محلي- حول القرآن، طالما أنه يمتلك شيئًا يستحق القول. إن إلقاء الشك على شخص يقوم بذلك معناه في الحقيقة شخصنته، وإذا أراد المرء تضييع الوقت، فيمكنه أن يلفق قضية، ويصف هارون هيوز (Aaron Hughes) بالخبير في الفلسفة اليهودية، وهو غير مؤهل لإصدار أحكام حول القرآن أو التاريخ الإسلامي المبكر. يوجد في الحقيقة عدد قليل من برامج الدكتوراه في الدراسات القرآنية في حد ذاتها، ولذلك يمكننا تقليص فئة الباحثين المتضلعين في الدراسات القرآنية إلى ما يقارب الصفر. ولكن، كما يقول المثل العربي في العصور الوسطى «لا تعرف الحق بالرجال، فتقع في مهاوي الضلال». فلا يتعلق الأمر بما إذا كان صاحب الفكرة هاويًا أم خبيرًا. إذ الهواة قادرون أحيانًا على تقديم نتائج مهمة طالما أنهم يقومون بواجبهم؛ وخلافًا لذلك، قد يقع الخبراء في الخطأ إذا لم يقوموا بذلك. فالتجربة خير دليل؛ إذ لم يكن مايكل فينتريس (Michael Ventris)، المهندس المعماري الذي فك رموز الخط بـ (Linear- B) ـ وهو في رأيي أحد أروع الإنجازات التي حصلت في العلوم الإنسانية في القرن العشرين، بالإجماع - سوى باحث هاوٍ»[3].

---

(1) -Devin Stewart, «Growing Pains of Qur'anic Studies,» in *International Qur'anic Studies Association*, 2015, p. 1

(2) يقول: «والأخبار السيئة هي أن النشاط لم يثمر أي إجماع حول أي جانب من جوانب التخصص. علاوة على ذلك، فالأسئلة المتعلقة بالقرآن والتاريخ الإسلامي المبكر الذي كتبه حوله الباحثون منذ 1960م وفهموه واتفقوا عليه صار اليوم موضع تساؤل وخاضعًا لآراء متفرقة». انظر:
Devin Stewart, «Reflections on the State of the Art in Western Qur'anic Studies,» p. 6

(3) Devin Stewart, «Growing Pains of Qur'anic Studies,» in *International Qur'anic Studies Association*, 2015, p. 2

فقد شهد تاريخ دراسة القرآن في الغرب، ظهور اتجاهات مختلفة من حقبة إلى أخرى، وأضحى البحث اليوم في حصر هذه الاتجاهات والتعريف بها فرعًا من فروع التخصص. ورغم أن تخصص الدراسات القرآنية، بوصفه تخصصًا عالميًّا ممتدًا ومنفتحًا، تند أعماله كمًّا وكيفًا عن الحصر، إلا أن بعضَ الجهود الأكاديمية الغربية -ومنها المقالات المترجمة أدناه- حاولت قديمًا وحديثًا ترصُّدَ أهم اتجاهاته والتعريف بها. ولعَلَّ من أبرز هذه الجهود الأولى ما كتبه فيليم بيجلفد **(Willem Bijlefeld)** في مقاله المؤلف من ثلاثة أجزاء الموسوم بـ: «بعض الإسهامات المتأخرة في الدراسات القرآنية: منشورات مختارة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية»[1]، ومقال دانيال ماديغان **(Daniel Madigan)** الموسوم بـ«تأملات حول بعض الاتجاهات المتأخرة في الدراسات القرآنية»[2]، ومقال ويليام رونالد دارو **(William Ronald Darrow)** الموسوم بـ«**الاتجاهات الحديثة في الدراسة التاريخية والأدبية للقرآن**»[3]. كما أشار منعم سيري **(Munʾim Sirry)** كذلك في مقدمة الكتاب الجماعي الموسوم بـ«**اتجاهات جديدة في الدراسات القرآنية: النص والسياق والتفسير**»[4]، إلى بعض الاتجاهات الكبرى، مثل اتجاه محيط القرآن، واتجاه أصوله وتدوينه، واتجاه السمات الأدبية للقرآن، والقضايا الموضوعية الواردة في القرآن، واتجاه تفاسير القرآن[5]. ويحدد أوليفر ليمان (Oliver Leaman)

(1) W. A. Bijlefed, «Some Recent Contributions to Qur'anic Studies. Selected Publications in English, French and German, 1964- 1973,» in *MW 64 (1974)*, I- III, pp. 79- 102

(2) Daniel A. Madigan, «Reflections on some current directions in Qur'anic Studies,» V. 85, Issue 3- 4, 1995, pp. 345- 362.

(3) William Ronald Darrow, «Recent Trends in Historical and Literary Study of the Qur'an,» in *MIQOT*, V. XXXV No. 1 Januari-Juni 2011, pp. 1- 25

قسم الاتجاهات إلى قسمين: اتجاهات تاريخية، وهي: اتجاه العصر القديم المتأخر، ومصادر القرآن، وتدوينه، والمراجعون الجدد، واتجاهات أدبية، وحصرها في: اتجاه الكتابة والشفاهة، والأشكال، والمجاز، والوزن، والفاصلة، والخطاب، ووحدة السورة، وقصص الأنبياء، والتفاسير القرآنية الإسلامية، وختم بالحاجة إلى اتجاة التداوليات في القرآن، ودراسة مختلف تفاسير القرآن في العالم الإسلامي.

(4) Munʾim Sirry (ed.), *New Trends in Qurʾanic Studies Text, Context, and Interpretation* (Atlanta, Georgia: Lockwood Press, 2019).

(5) Munʾim Sirry, «Introduction: Recent Trends in Qur'anic Studies,» in *New Trends in Qurʾanic Studies Text, Context, and Interpretation* (Atlanta, Georgia: Lockwood Press, 2019) pp. 1- 18

تطور دراسة القرآن في مقاله الموسوم بـ«**التطورات الحديثة في الدراسات القرآنية**»[1]، في أربع حركات تفسيرية، وهي: **أولًا:** الشعبويون: مثل سعيد النورسي (1878-1960) وفتح الله كولن، ويوسف القرضاوي (1926-2022) وعمر خالد وطارق رمضان. **وثانيًا:** الحداثيون: مثل فضل الرحمن (1919-1988)، ونصر حامد أبو زيد (1943-2010)، وحسن حنفي (1935-2021)، وفريد إسحاق، وعلي شريعتي (1933-1977) وأسماء بارلاس وأمينة ودود. **وثالثًا:** العلميون أو الأكاديميون: مثل أعمال أنجليكا نويفرث ومشروعها الموسوعة القرآنية. **ورابعًا:** جمهور القرآن، ويختم ببعض الآراء القدحية، مثل آراء ابن الوراق، وكريستوف لوكسنبرغ. أما بهنام صادقي **(Behnam Sadeghi)** ومحسن جودارزي **(Mohsen Goudarzi)** فقد صنفا أعلام الدراسات القرآنية إلى أربع فرق وهي: التراثيون، والمراجعون، والشكانيون، والتراثيون الجدد[2].

ويقسم الألماني ماركو شولر **(Marco Schöller)**، في مقاله المترجم أدناه الموسوم بـ «**الدراسة الأكاديمية للقرآن بعد عصر الأنوار**»[3]، مراحل تطر دراسة القرآن إلى ثلاثة اتجاهات: دراسات القرن التاسع عشر، ودراسات النصف الأول من القرن العشرين، ودراسات النصف الثاني من القرن العشرين، ثم يختم مقاله ببعض التوصيات. ويصف الأمريكي ديفين ستوورت **(Devin Stewart)** في مقاله الطويل الموسوم بـ«**تأملات في تطورات الدراسات القرآنية الغربية**»[4]، التطورات التي عرفتها الدراسات القرآنية، ويقوم وضعها الراهن في الأكاديميا الغربية. ويبين كذلك الاهتمام المتزايد في الآونة الأخيرة بهذا المجال، والكيفية التي تغيرت بها طرقُ دراسته، وكيفية تشعبه، وصعوبة مواكبة وتيرته المتسارعة. حدد هذه الاتجاهات في أحد عشر اتجاهًا،

(1) Oliver Leaman, «Modern Developments in Qur'anic Studies,» in *The Oxford Handbook of Qur'anic Studies*, ed. By Mustafa Shah and Muhammad Abdel Haleem (Oxford: Oxford University Press, 2018).

(2) Behnam Sadeghi and Mohsen Goudarzi, 'Ṣanʿāʾ 1 and the Origins of the Qurʾān', *Der Islam 87* (2012): 1–5.

(3) Marco Schöller, «Post-Enlightenment Academic Study of the Qurān,» in *EQ 4* (2004): pp. 187- 208.

(4) Devin Stewart, «Reflections on the State of the Art in Western Qur'anic Studies,» in *Islam and Its Past: Jahiliyya, Late Antiquity, and the Qurʾan*, edited by Carol Bakhos and Michael Cook (Oxford: Oxford University Press, 2017) pp. 4- 68

ينتسب اتجاهان منها إلى الدراسات الحديثة، وهما: **أولا:** اتجاه الكتابيين القدامى، وثانيًا: اتجاه نظم القرآن وتاريخ الشكل. ثم يقتفي أثر **تسعة** «اتجاهات مؤثرة» في الدراسات القرآنية المعاصرة. وهي: الكتابية الجديدة **(New Biblicism)**، والتاريخ البديل **(Allohistory)**، والعصور القديمة المتأخرة **(Late Antiquarianism)**، والنصانية الجديدة **(New Textualism)**، ونظرية الخاتم **(Ring Theory)**، والنقد النسوي **(Feminist Criticism)**، والنمطية النبوية **(Prophetic Typology)**، والأداء الشفهي **(Oral Performance)**، والتدوين **(Canonization)**. ويدعو في الصفحات الأخيرة إلى بذل مزيد من الجهود لترجمة القرآن الكريم ودراسات القرن التاسع عشر المكتوبة باللغة الألمانية، ودراسة اللغة العربية، وزيادة الوعي بالعلوم الإسلامية في العصور الوسطى. علاوة على ذلك، يحث الجمهور الأكاديمي على الانخراط في النقاشات الدولية، ولا سيما أن مجال القرآن يتوسع بسرعة، ويُقارَب اليوم من لدن مجموعة واسعة من التخصصات. ورغم المحدودية الواضحة لإدخال مناهج مختلفة في مجالات منفصلة، إلا أن مقال ستيورت يعد بمثابة مقدمة محفزة للعمل الجماعي. أما فريد دونر، فيحصر اتجاهات القرآن في مقاله الموسوم بـ«**تأملات حول تاريخ وتطور الدراسة الغربية لقرآن القرن الحادي والعشرين، منذ سنة 1900 إلى اليوم**»[1]، في ستة اتجاهات كبرى، وهي: أولًا: اتجاه الجدل، وثانيًا: الاتجاه العقلاني، وثالثًا: اتجاه المنهج التاريخي النقدي، ورابعًا: الاتجاه التنقيحي، وخامسًا: التحليل البنيوي والأدبي، وسادسًا: اتجاه تجربة القرآن.

ولم تُعْنَ هذه الدراساتُ المترجمةُ المختارة أدناه -المرتبة ترتيبًا كرونولوجيا- بتقصي مراحلِ تاريخ دراسةِ القرآن في الغرب واتجاهاته فقط، بل بمعرفة طبيعة هذه التحولات كذلك. هل هي تحولات حقيقية أم مجرد تغيُّرات وهمية زائفة لم تنعتق بعد من سياج العصور الجدالية القديمة؟ أو بتعبير أندرو ريبين «مجرد دراسات جدالية متنكرة في لبوس علمي»[2]. وفي هذا السياق، تعد ترجمةُ هذه الدراسات مقدمة عامة

(1) Fred Donner, «Reflections on the History and Evolution of Western Study of the 21 Qur'ān, from ca. 1900 to the Present,» in *New Trends in Qurʾanic Studies: Text, Context, and Interpretation*, ed. By Munʾim Sirry (Atlanta, Georgia: Lockwood Press, 2019) pp. 21- 43.

(2) Andrew Rippin, «Western scholarship and the Quran,» p. 232.

لمجال الدراسات القرآنية الغربية، ومرجعًا مهمًا للمختصين للاطلاع على حدود البحث واتجاهاته القديمة والمتأخرة واستشراف بحوث المستقبل. وما دمنا نعيشُ في عصر يشهد عودة عودة ملحوظة لدراسة القرآن بعد انتهاء عصر وجيل ظل حبيس الاهتمامات الثانوية، فإن هذا الكتاب يقدم للقارئ المهتم دراسة واسعة للتطورات الحاصلة في هذا المجال، وترسيمة خطية ملموسة لبعض الاتجاهات البحثية المتأخرة.

وأخيرًا، أعتذر مقدمًا عن أي أخطاء أو هفوات قد تظهر للقارئ الكريم، والتي لا بد منها في أي عمل بشري، رغم أن هذا العمل قد خضع لعدة مراجعات. كما أود أن ألفت انتباه القارئ إلى أن هذه الأعمال تتضمن كثيرًا من الأحكام والنتائج السطحية والمتهافتة التي نختلف معها ونرفضها تمامًا. ولكني لم أكلف نفسي عناء الرد عليها؛ لأن الهدف من ترجمة هذه الأعمال -فضلًا عن إطالة البحث- ينحصر في رصد تاريخ الدراسات القرآنية في الغرب، وأبرز اتجاهاتها ومناهجها، وفسح المجال للقارئ الكريم المهتم لتقويمها والتفاعل معها. كما أنوه أنني اعتمدت منهجًا ديناميًّا وحرًّا في نقل هذه النصوص الأربعة المكتوبة في الأصل باللغة الإنجليزية، يراعي من جهة بنية اللغة الهدف وأسلوبها، ويركز على المعنى بدلًا من التقيد باللفظ، مع الحفاظ على أفكار النصوص المترجمة كاملة، وتحري الدقة والأمانة في نقلها.

واللهَ أسأل التوفيق والسداد، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه،

والحمد لله رب العالمين

بدر الحاكيمي

الدار البيضاء: 2024/05/29